الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد خيضر بسكرة
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية قسم العلوم الإنسانية
شعبة التاريخ
المستوى: أولى ماستر (تاريخ الوطن العربي المعاصر)
محاضرة في مقياس: المشرق العربي والدولة العثمانية (1840م – 1920م)

عنوان المحاضرة

طبيعة العلاقة بين العثمانيين والعرب

تمهيد

لقد شهدت العلاقات العثمانية العربية مرحلة فريدة من نوعها إبان الحكم العثماني الذي استمر نحو أربعة قرون في بعض المناطق العربية، وقامت العلاقة بين الأتراك العثمانيين والعرب على مبدأ الأخوة في الدين، فناضلوا ضد الغزو الصليبي كأعضاء في دولة واحدة والدين نفسه من أجل قضية نفسها. ومنذ أن ورث العثمانيون التراث الإسلامي عملوا على تعزيزه وتطويره.

أولا ـــ لمحة تاريخية وجغرافية عن الدولة العثمانية:

ينسب الأتراك العثمانيون إلى عشيرة قابي التركية التي يعرف شعبها بشعب الأغوز (الغز) وتنتمي إلى الجنس الأصفر الماغولي. كان موطنهم الأول بآسيا الوسطى في المنطقة الواقعة بين جبال الطاي شرقا وبحر قزوين غربا.

قامت الإمارة العثمانية التي ورثت الدولة السلجوقية الرومية ونشأت من خلال الخدمات التي قدمها زعيمهم أرطغل للسلطان السلجوقي علاء الدين الأول (1219م ـــ 1237م) ومساعدته في حربه ضد البيزنطيين، فسمح له هذا السلطان بتوسيع مملكته على حساب دولته.

ظهر أرطغل بلقب (أوج بيكي) أي محافظ الحدود، وتميزت إمارته بصغر حجمها وبعدها عن مناطق الغزو الماغولي ونفوذ الإمارات التركمانية القوية ووقوعها بالقرب من الطريق التجاري.

ويعتقد المؤرخون أن التأسيس الفعلي للدولة العثمانية كان على يد عثمان بن أرطغل بن السلطان سليمان شاه التركماني، قائد إحدى قبائل الترك النازحين من سهول آسيا الغربية.

تعتبر الدولة العثمانية من أطول دول الترك بقاء إذ عمرت ما يقارب أو يزيد عن ستة قرون (1299م ـــ 1924م)، وتعاقب على عرشها أربعون حاكما عرف الثلاث الأوائل منهم **بالبكاوات** أما الباقون فعرفوا **بالسلاطين**، وبدأت حركة التوسع في بلاد الأناضول في عهد عثمان بن أرطغل الذي استولى على المناطق المشرفة على بحر مرمرة والبحر الأسود شرقا، ثم على منطقة بني شهر غربا حوالي عام 1300م، وأتم ابنه أورخان عملية التوسع فاحتل بورصة الواقعة على سفوح الألمبوس، وفي عام 1328م سقطت بيده مدينة أزمير، وبذلك سيطر العثمانيون على كل مناطق الأناضول.

و قد تمكنت الجيوش العثمانية من تخطي مضيق البوسفور متجهة نحو أوروبا وهاجمت شبه جزيرة البلقان في عهد بايزيد، وفي عهد مراد الثاني تم فتح مقدونيا وصوفيا والقسم الشمالي من اليونان سنة 1385م، كما تم فتح القسطنطينية في 29 ماي 1453م على يد السلطان محمد الثاني الذي أصبح يلقب منذ ذلك العهد بلقب

محمد الفاتح، وجعل منها العثمانيون عاصمة لدولتهم وأطلقوا عليها إسلام بول قبل أن يتحول اسمها إلى إسطنبول.

وفي عهد سليمان القانوني سقطت بلغراد عام 1521م وتم فتح جزيرة رودس، كما تم فتح بلاد الكجر عام 1526م وتم حصار فيينا عام لأول مرة عام 1529م وأعيد حصارها للمرة الثانية في عهد مراد الرابع عام 1683م.

ولقد كان ظهور الخلافة العثمانية أثرا في تجميد الزحف الصليبي وحملاته للقضاء على العروبة والإسلام بفضل جيشها الانكشاري (الجيش الجديد).

ثانيا ـــ الإطار الجغرافي للمشرق العربي:

المشرق العربي مصطلح يطلق على ذلك الحيز الجغرافي من الشرق الأوسط الذي يمتد من البحر الأبيض المتوسط غربا حتى الهضبة الإيرانية شرقا.

والأقاليم العربية الواقعة في آسيا تتمثل في شبه الجزيرة العربية (اليمن-البحرين-السعودية-قطر-الأردن-عمان-الكويت...) والهلال الخصيب الذي يتكون نصفه الشرقي من العراق ونصفه الغربي من سوريا وبين طرفي الهلال الخصيب تقع بادية الشام، وهي امتداد للمستطيل الصحراوي أي الجزيرة العربية نفسها، ويحد الجزيرة العربية من الشرق الخليج العربي وبحر عمان ومن الغرب البحر الأحمر.

والمشرق العربي جزء من منطقة الشرق الأوسط الذي يتكون حاليا من تركيا – أفغانستان – العراق – الجزيرة العربية – دول الهلال الخصيب – سوريا – لبنان – الأردن – فلسطين - مصر، مع العلم أن مصطلح الشرق الأوسط ظهر لأول مرة عام 1902م في كتاب لمؤرخ بحري أمريكي يدعى (ألفريد ماهان) .

ثالثا ـــ العلاقات العثمانية العربية:

1ـــ العلاقات قبيل التوسع العثماني:

رغم أن أغلب المصادر التاريخية أهملت الحديث عن طبيعة العلاقة بين العثمانيين والعرب، إلا أن هنالك من عثر على مخطوط بالمكتبة البريطانية (the British library) به خمسة رسائل من السلطان محمد الفاتح إلى سلطان مصر (إينال) وإلى شريف مكة، وأجوبتهما على رسائله، وهذه المراسلات بين الطرف العثماني ومن يمثل الطرف العربي توحي أن طبيعة العلاقة بين الطرفين كانت تمتاز بالمودة والتفاهم، و الشيء الذي يترجم ذلك هو تبادل الهدايا وزيارات السفراء، وظاهرة الزواج التي كانت تتم بينهما.

وتذكر مصادر تاريخية أخرى أنه خلال فترة زمنية طويلة لم تنشأ أي خلافات سياسية أو عقائدية ولا تنافس تجاري بين العثمانيين والعرب، وحتى سقوط القسطنطينية كان الحكام العثمانيون يعترفون بالأولوية الدينية والسياسية للمماليك، بينما خصصوا لأنفسهم دورا متواضعا "البكاوات حماة الأطراف" أما المماليك كانوا

ينظـــرون إلـــى حركـــات العثمـــانيين كجـــزء مـــن المســـألة الإســـلامية العامـــة، واعتبـــرت القاهرة أن الاستيلاء على القسطنطينية نصر للمسلمين جميعا.

وبعـــد 1453م تغيـــر الوضـــع جـــذريا وكـــان تبـــادل البعثـــات والحفـــلات التـــي أقيمـــت بمناســـبة الاســـتيلاء علـــى القســـطنطينية آخـــر مظـــاهر الوفـــاق العثمـــاني المملـــوكي، فقـــد لاحـــظ حكـــام القـــاهرة أن دولـــة قويـــة أخـــذت تنمـــو علـــى حـــدودهم، ولاحظـــوا أن الحكـــام العثمـــانيين أصـــبحوا يكنـــون بلقـــب "ســـلطان" بـــدلا مـــن "غـــازي" ومـــن هنـــا بـــدأ التـــدهور الحـــاد فـــي العلاقـــة العثمانيـــة المملوكيـــة، وأصـــبح الصـــراع علـــى الهيمنـــة وعلـــى الأولويـــة في زعامة العالم الإسلامي على أشده بين الطرفين.

كمـــا ذكـــر المؤرخـــون أن أول تصـــادم بـــين العثمـــانيين والأتـــراك كـــان فـــي الفتـــرة الممتـــدة مـــن 1486م إلـــى 1491م، لكـــن رغـــم أن ميـــزان القـــوة فـــي هـــذا الصـــراع مـــال لصـــالح المماليـــك إلا أنهـــم لـــم يحققـــوا نصـــرا حاســـما، ورغـــم الوســـاطة التونســـية إلا أن الخطـــر العثمـــاني بقـــي يـــداهمهم، لاســـيما بعـــد أن رفضـــوا مســـاعدة العثمـــانيين لهـــم فـــي صراعهم ضد الصفويين بسبب خشيتهم من ازدياد النفوذ العثماني في المنطقة.

بالإضـــافة إلـــى هـــذا ذكـــر المؤرخـــون أنـــه ممـــا زاد مـــن تـــوتر العلاقـــة بـــين العثمـــانيين والمماليـــك هـــو استضـــافة المماليـــك للثـــائرين ضـــد الســـلطان العثمـــاني كـــالأمير "جـــم بـــن محمـــد الثـــاني" ، غيـــر أن العلاقـــة بـــين الطـــرفين شـــهدت نـــوع مـــن التحســـن مـــع بدايـــة القـــرن الســـادس عشـــر المـــيلادي بعـــد التهديـــد البرتغـــالي للمماليـــك أيـــن طلـــب هـــؤلاء دعمـــا عســـكريا مـــن العثمـــانيين، فاســـتجاب العثمـــانيون لطلـــبهم وذلـــك لأســـباب دينيـــة فـــي المقـــام الأول، ولأغراض إستراتيجية في المقام الثاني.

2 ـــ التوسع العثماني في المشرق العربي:

تشـــير المصـــادر التاريخيـــة أنـــه مـــن الأســـباب التـــي دفعـــت العثمـــانيين للاتجـــاه نحـــو الشـــرق لدولـــة المماليـــك فـــي مصـــر والشـــام الخطـــر البرتغـــالي المحـــدق بحـــدود الشـــرق العربـــي والممهـــد لمنافـــذه الإســـتراتيجية فـــي بدايـــة القـــرن الســـادس عشـــر المـــيلادي، وهـــو خطـــر رأى العثمـــانيون أنهـــم أجـــدر بالتصـــدي لـــه والجهـــاد ضـــده وحمايـــة الأمـــاكن المقدســـة، خاصة أن دولة المماليك كانت تمر بحالة من الضعف والتدهور السياسي والعسكري.

وعليـــه قـــام الســـلطان ســـليم الأول ســـنة 1516م بحملـــة عســـكرية ضـــد المماليـــك فـــي بـــلاد الشـــام فهـــزمهم فـــي معركـــة (مـــرج دابـــق) بـــالقرب مـــن **حلـــب**، واســـتولى عليهـــا ثـــم زحـــف نحـــو **دمشـــق والقـــدس** فـــدخلت بـــلاد الشـــام كلهـــا فـــي حـــوزة العثمـــانيين وتحققـــت رغبة السلطان سليم الأول في حماية المقدسات الإسلامية والتصدي للبرتغاليين.

وفـــي ســـنة 1517م قـــرر الســـلطان ســـليم الأول الاســـتيلاء علـــى مصـــر وحقـــق جيشـــه انتصـــارا ســـاحقا علـــى المماليـــك فـــي معركـــة **غـــزة**، ثـــم معركـــة **الريدانيـــة** جنـــوب القـــاهرة لتصـــبح مصـــر أيالـــة عثمانيـــة، وعنـــدما ســـمع شـــريف مكـــة بانتصـــار العثمـــانيين فـــي مصـــر أعلـــن ولاءه لهـــم وأرســـل لهـــم مفـــاتيح الكعبـــة، وبـــذلك صـــار **الحجـــاز** ولايـــة عثمانيـــة وأصـــبح

سليم الأول خليفة للمسلمين بداية من عام 1517م، وانتقلت بذلك الخلافة الإسلامية للدولة العثمانية.

وفي أواخر حكم المماليك كان اليمن يعاني من صراعات داخلية وتعرض إلى تهديد خطير من قبل البرتغاليين الذين شنوا عليه هجمات متكررة، م وهذا ما جعل العثمانيون يقررون فرض سيطرتهم عليه وضمه إليهم، فأرسل السلطان سليم الأول سنة1517م بعثة حملت أوامره ـــ أوامر سلطانية ـــ لقادة المماليك ليعلنوا خضوعهم للدولة العثمانية، غير أن بعض هؤلاء القادة رفض وتمسك باستقلاله مما أدى بالسلطان إلى إرسال حملة عسكرية لإخضاع اليمن بالقوة.

وفي عام 1534م قرر السلطان سليمان القانوني ضم العراق وتأمين الحدود الشرقية للدولة، فأرسل جيشه الذي تمكن من دخول بغداد ورتب شؤونها ورصد المال للمؤسسات الدينية. لكن رغم أنه أصبح للعثمانيين موضع قدم في الخليج، إلا أن وجودهم بقي مهددا من قبل الصفويين من جهة، وتمرد شيوخ القبائل من جهة أخرى، لذلك أرسلوا حملة جديدة سنة 1549م لإخضاع المتمردين وبسط سلطتهم على كامل المناطق العراقية، وقد حققت هذه الحملة أهدافها فأصبح العثمانيون يحظون باحترام لدى شعوب الخليج، كما عملوا على مد نفوذهم إلى القطيف والأحساف في الفترة الممتدة من 1550م إلى 1552م وأبعدوا قبيلة بني خالد عن حكم المنطقة التي اعتبروها ولاية عثمانية وقاعدة أمامية للتصدي للبرتغاليين الذين اتخذوا بدورهم من هرمز نقطة ارتكاز لتوسعهم، أما نجد فقد فشلت الحملة في إخضاعها بعدما تلاشت الجيوش العثمانية التي أرسلها السلطان سليمان القانوني في صحرائها.

رابعا ـــ طبيعة نظام الحكم العثماني للبلاد العربية:

عملت الدولة العثمانية على تثبيت أقدامها في المناطق العربية التي أخضعتها وتوسعت فيها من خلال نظام حكم مركزي، ودامت هذه السيادة حتى بداية القرن العشرين مما انعكس أثره على البلاد العربية، وعين العثمانيون بعض الشخصيات التي ساعدتهم أثناء الفتح في مناصب سامية بتلك المناطق للاستفادة من خبراتهم الإدارية **مثل جان بردي الغزالي** الذي عينوه واليا على الشام.

خضعت البلاد العربية لنفس التنظيمات التي خضعت لها أيالات الدولة العثمانية الأخرى، وبلغ عددها 17 ولاية (بغداد – البصرة – الموصل – شهر زور – دمشق – طرابلس – حلب – الرقة – صيدا – اليمن – الأحساف – ثرافة – مكة – مصر – تونس – طرابلس الغرب – الجزائر) وقد وضعت على رأس كل ولاية وال أو "بكلربكي" مثل الكخيا ومعظمهم برتبة وزير، وأغا الانكشارية وقاضي القضاة، وقد كان الحكم العثماني سطحيا قليل التأثير في المجتمعات العربية ثم أن البلاد

العربية أثرت في الدولة العثمانية بصبغتها الشرقية الإسلامية، لذلك يجمع المؤرخون أن العثمانيون لم ينجحوا في عثمنة وتتريك البلاد العربية.

كما تميز نظام الحكم العثماني في البلاد العربية بالصبغة العسكرية، لكون رجال الحكم والإدارة كانوا من قادة الجيش وهذا بحكم النشأة العسكرية للدولة، بالإضافة إلى أن الدولة العثمانية فرضت نوع من العزلة على المشرق العربي فلم يتمكن من الاتصال بالحضارة الأوروبية.

المصادر والمراجع

1- أحمد عبد الحميد مصطفى: في أصول التاريخ العثماني.
2- أحمد زكريا الشلق: العرب والدولة العثمانية من الخضوع إلى المواجهة (1516-1916).
3- عبد الجليل التميمي: دراسات في التاريخ العربي العثماني 1453-1918.
4- عمر بن عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربي (1516-1922).
5- فاروق عثمان إباضة: الحكم العثماني في اليمن (1872-1918).
6- محمد سهيل طقوش: تاريخ العثمانيين (من القيام إلى الانقلاب على الخلافة).
7- نيقولاي إيفالوف: الفتح العثماني للأقطار العربية 1516-1570.